تفسير قوله: ولقد جنناهم بكتاب فصلناه على علم

اللهم صل وسلم علي سيدنا محمد وآله وصحبه. أعود بالله من الشيطان الرجيم { وَلَقَدْ جَنَّاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ تَسُوهُ مِنْ قَبْلٍ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ يَسْتَفْعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ حَسِبُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ادْعُوا } . أعود بالله من الشيطان الرجيم. يقول الله جل وعلا: { وَلَقَدْ جَنَّاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ تَسُوهُ مِنْ قَبْلٍ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ يَسْتَفْعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ حَسِبُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } . لما بين الله جل وعلا مصير أهل الجنة ومصير أهل النار، وما يقوله كل من أهل الجنة وأهل النار للآخرين، وما يقوله أصحاب الأعراف للطرفين -بين أن الذين هلكوا واستحقوا النار، وخلدوا في النار ما جاءهم ذلك إلا عن الإعراض عن هذا الكتاب الأعظم، والنور المبين الذي أنزله رب السماوات والأرض. وفصل فيه العقائد والحلال والحرام، وبين فيه الأمثال، وما يوصل إلى الجنة وما يوصل إلى النار، وأوضح فيه كل خير، وحذر فيه من كل شر، وبشر فيه وأذر. فمن أعرض عن هذا القرآن هم الذين صاروا إلى النار، ومن عمل بهذا القرآن هم الذين صاروا إلى الجنة. ومنذ أنزل الله هذا الكتاب الذي هو أعظم كتاب نزل من السماء إلى الأرض، وجمع الله فيه علوم الأولين والآخرين - استحال شرعا أن يدخل أحد النار إلا عن طريق الإعراض عنه، أو يدخل أحد الجنة إلا عن طريق العمل به. فالعمل به مفتاح الجنة والإعراض عنه مفتاح النار { وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ قَالَتِ الْأَرْبَابُ الْمُؤَدَّبَةُ { الْآيَةُ: ولأجل ذلك جعله الله رحمة لقوم وفقهم للعمل به، وحجة ووبالا على قوم خذلهم فلم يعملوا به { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آدَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ } . { وَتَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا حَسِيرًا } { وَلَيَرْبِدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ الرَّسُولِ فَكُفِّرُوا } { وَإِذَا مَا أَنزَلْنَا سُورَةً قَمِئَتْ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } . ولذا قال هنا: { وَلَقَدْ جَنَّاهُمْ } ؛ أي الخلائق الذين كنا نقص خبرهم بأن بعضهم في الجنة وبعضهم في النار؛ فعلى هذا القول فالكتاب جنس الكتب السماوية. والأظهر أن المرادين به أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وأن الكتاب هو هذا القرآن العظيم { وَلَقَدْ جَنَّاهُمْ } ؛ أي جننا هذه الأمة التي دخل بعضها الجنة وبعضها النار { بِكِتَابٍ } أنزلناه على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وقراءة الجمهور من السبعة بل والعشرة { وَلَقَدْ جَنَّاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ } أما قراءة "ولقد جنناهم بكتاب فصلناه"؛ أي على سائر الكتب؛ فليست من القراءات السبعية، قرأ بها ابن محيص وغيره. وهي وإن كانت شاذة فمعناها صحيح؛ لأنه مفضل على سائر الكتب، وقراءة الجميع واللام موطنه للقسمة. والله ما تركناهم سدى ولا في غفلة، والله { لَقَدْ جَنَّاهُمْ بِكِتَابٍ } ؛ يعني آتيناهم { بِكِتَابٍ } قدمنا أنه قيل له: الكتاب؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ كما قال: { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ } . وفي صحف عند الملائكة؛ كما في قوله: { فِي ضُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ } وكذلك هو مكتوب عند المسلمين في مصاحفهم يقرءونه { بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ } صيغة الجمع للتعظيم. والله هو الآتي بهذا الكتاب وحده المفصل له وحده، وصيغة الجمع في "جننا" وفي "فصلنا" إنما هي للتعظيم، والمعنى فصلناه؛ التفصيل ضد الإجمال، ومعنى تفصيل هذا الكتاب جعلناه مفصلا موضحا. بينا فيه العقائد بتفصيل وإيضاح، والحلال والحرام والأمثال والمواعظ. وما يدخل الجنة وما يدخل النار، وما يرضي الله وما يسخط الله، وما تصلح به أحوال الإنسان في دنياه وآخرته وما تفسد به؛ فقد فصل الله فيه كل شيء، وبين فيه أصول كل شيء. فأوضح فيه العقائد ومكارم الأخلاق والخروج من الشبهات، ورفع به الهمم وبين أصول الحلال والحرام وأصول المواعظ وجميع الأشياء. والغريب كل الغريب الذي لا يقضي الإنسان عجه منه أن أمة ينزل عليها هذا الكتاب الذي يقول الله فيه أنه فصله على علم منه، بينه مفصلا بعلم الله جل وعلا المحيط بكل شيء، وضمن فيه جميع المصالح ودرأ جميع المفسدات، وخير الدنيا والآخرة. وهذا كله من رب العالمين المحيط بعلمه بكل شيء، وهذا كلامه الذي فصله على علم منه وأوضحه، وبين فيه معالم الخير ومعالم الشر، وما يصلح دنيا الإنسان وآخرته، وما يكون به على خير في كلتا الدارين. وهو تنزيل رب العالمين وتفصيل خالق السماوات الأرض، ومع هذا كله يرغب عن هذا الكتاب ولا يبالي به، ويذهب يطلب الخير والحق في آراء قوم كفره فجرة كلاب خانزير. فهذا من غرائب الدهر وعجائبه؛ كيف تصرف هذه الأمة عن هذا الكتاب المنزل الذي هو كلام رب العالمين وما فيه من المعاني، وما فيه من العقائد والحلال والحرام والمعاملات والمواعظ ومكارم الأخلاق. وإيضاح علاقات المجتمع فيما بينه، وإيضاح حالة الإنسان في نفسه وما ينبغي أن يكون عليه، وما ينبغي أن يكون عليه مع مجتمعه الخاص ومع مجتمعه العام، وما يكون عليه مع أعدائه!! كل هذا فصله رب العالمين وأوضحه، وزاده بيانا رسول كريم { مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ } ؛ فتركها محجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. من سلك هذا القرآن العظيم وعمل به وبالسنة المبينة له؛ نال خير الدنيا وخير الآخرة، وكان أعظم الناس هيبة وأقواهم شوكة وأعزهم منعة. ومع هذا كله فالأمة التي نزل القرآن على أسلافها تخلت عن هذا الكتاب المحكم الذي هو كتاب رب العالمين الذي قال فيه { وَلَقَدْ جَنَّاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ } المفصل له هو الله، على علم من الله، المحيط بعلمه بكل شيء، ومع هذا يتركونه ولا ينظرون إليه. وينبذونه وراء ظهورهم، ويذهبون يطلبون الرشد ومصالح أمرهم في قوانين ونظم رتبها كفره فجرة جهلة مظلمة قلوبهم، هم كالأنعام أو أضل سبيلا. فهذا من أغرب ما يشاهده الإنسان، ولو أننا لم نره عيانا لما كنا نصدق أن عاقلا يذهب عن كلام رب العالمين الذي بين فيه الرشد وخير الدنيا وخير الآخرة، وأوضح فيه كل شيء - يتركه عمدا زاعما أنه لا ينظم علاقات الحياة، ولا يسائر ركب الحضارة. ثم يذهب إلى نظم وضعية وقوانين إفرنجية وضعها ملاحدة لا يعلمون عن الله شيئا { لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } ؛ فهذا من أغرب ما وقع في التاريخ نسأل الله أن يبصرنا بهداه ولا يضلنا ولا.... أن الذي جرهم إلى ذلك أن القرآن أعظم نورا، والله يسميه النور في آيات كثيرة: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا } { قَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا } { عَلَىٰ عِبَادِنَا } { وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ تَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا } فهو نور أعظم نور. وهؤلاء الذين ينصرفون عنه إلى النظم الوضعية الكافرية في الحقيقة هم خفافيش البصائر، والخفاش لا يلام إذا كان لا يمكن أن يرى ضوء الشمس؛ لأن بصيرته ليس لها استعداد ولا قوة على مقابلة الشمس؛ مثل النهار يزيد أبصار الوري نورا ويعمي أعين الخفاش خفافيش أعماها النهار بضوئه وواقفها قطع من الليل مظلم كما أشار الله لهذا في قوله: { بَكَادُ النَّورُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ } وبين جل وعلا في سورة الرعد أن هذا القرآن لا ينصرف عنه ويجهل أحقيته وأمره - إلا من أعمى الله بصيرته بالكلية. والأعمى إذا كان لا يبصر الشمس فما في تبصيره لها حيلة، ذلك في قوله: { أَقْمَنُ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى } فصرح بأن الذي لا يعلم أنه الحق أن الذي منعه من ذلك هو عماه. وعدم رؤية الأعمى للشمس لا يجعل في الشمس لبيسا ولا شكيا ولا ريبا. إذا لم تكن بالمرء عين صحيحة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر